

مجلة الدراسات الإيرانية

دراسات وأبحاث علمية متخصصة

مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

السنة الرابعة – العدد الحادي عشر – أبريل 2020

تصدر عن



المرجعيـة الشيعيـة في العـراق
البُنيـة الاجتماعيـة والثقافيـة وآليـاتُ التكيـُّف

علـي آل مظلــوم

باحــث في الاجتمــاع السياســي

لعلَّ من أهم التحديات المعاصرة التي تواجه العراق هو التفكير بشأن مستقبل المرجعية الشيعية العليا في النجف، والمخاطر المحتملة بعد وفاة علي السيستاني المرجع الشيعي الأعلى، وإمكانية هيمنة ما يُسمى في أدبيات الحوزات الشيعية بـ «خط ولاية الفقيه» على النجف، وضمور «الخط النجفي».

إذ لم يعُد خافياً ما لعبهُ المرجع السيستاني منذ العام 2003م من دور مهم في العراق، سواء بسعيه نحو تأسيس النظام السياسي وكتابة الدستور العراقي الدائم عبر انتخابات عامة للجمعية الوطنية، وهو ما تحقق العام 2005م، ودورُه الكبير في ضبط الشارع الشيعي أيام الاقتتال الطائفي خلال السنوات 2006م-2008م، أو لدوره الكبير في امتصاص صدمة ظهور ما يعرف بتنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، ثم دوره في تنحية رئيس الوزراء السابق نوري المالكي.

مـن هنـا تنبُـع أهميـة هذه الدراسـة، التي تسـعى إلـى تقديم صـورةٍ مكثفة عـن تاريخية المؤسسة الدينية الشيعية، بتحديدٍ أكثر، تركز الدراسة على فلسفة البقاء وآليات الصُمود والنشـأة التي رافقت ترسُّـخ وجودٍ المرجعية الشـيعية في العراق، بوصفِها مؤسسـةً دينيةً حاميةً للمذهب، راعيةً لأبنائه، دونَ الخوضِ في تفاصيلِ نشـأة المذهب الشـيعي التي لا تعني هذه الدراسـة، إذ تنحو منحى سوسـيولوجياً يتتبع العوامل الشـخصية والاجتماعية التي حكمت ترسُّـخ وجود المرجعية الشـيعية في النجف، وتسـعى إلى تقديم صورةٍ عامة تُتيح للباحثين فَهمَ أهم العوامل والمتغيرات التي تُسهم في مسيرة هذه المؤسسة ودورها السياسـي والاجتماعـي، وهذه الدراسـة هي دراسـةٌ ميدانيـة، تعتمدُ على خبـرةِ الباحث بتاريخِ وواقعِ الحوزة في النجف.

أولاً: حركة الاجتهاد وتشكُّل المرجعية عند الشيعة الإمامية

مبدئياً، يمكن القول إن فكرة «الفقيه المجتهد» بذاتها ليست واحدةً عند الشيعة الإمامية اليـوم، ربمـا لا يوجـد تأثيـرٌ فعلـيٌ للمدرسـة الإخبارية بعـد غَلَبـة المدرسـة الأصوليـة على الإخباريـة، لكـن الملاحظـة القيّمـة التـي أبداهـا السـيد كمـال الحيدري [1] فـي أحـد دروسـه عـن هيمنـة المدرسـة الإخباريـة علـى العقـل الشـيعي تجعـل لموضوع «الأخبـار» أهميةً في هـذا الموضـع، إذ أوضَـحَ أنَّ المدرسـة الأصوليـة وإن انتصـرت علـى المدرسـة الإخباريـة، لكنَّ العقل الإخباري لا يزال مهيمناً على العقلِ الشيعي.

ومـن المهـم أيضـاً المـرور علـى أصل تطـوّر نظريـة الاجتهاد عنـد الشـيعة الإمامية، والمراحـل التـي مـرَّت بها وتشـكَّلت معالمها وفقـاً لأحداث عصرها ومناخِها السياسـي، وستتطرق الدراسة للموضوع بُعجالةٍ شديدة.

يضع عدنان فرحان[2] سبع مراحلٍ مرَّت بها نظرية الاجتهاد تنقُلها الدراسة نصاً عنه، وقد أفرَدَ لكلِّ مرحلةٍ فصلاً كاملاً، وهـي:

- دور التدوين.
- دور التطور أو مرحلة الانطلاق الفقهي الاجتهادي.
- دور التطور أو دور الرُشد والنمو لحركة الاجتهاد.
- مرحلة الاتجاه العقلي في الاستنباط.
- ظهور الحركة الإخبارية.
- مرحلة الاعتدال أو عصر الكمال العلمي.
- مرحلة الإبداع للفكر الفقهي والاجتهادي، وهذه المرحلة الأخيرة هي التي تعيشـها الحوزة اليوم وِفقَ تصنيف عدنان فرحان.

علـى أي حـال، وبغـض النظـر عن التأصيـل الذي قدَّمه عدنـان فرحان بوصفِـه مُنتمياً للحوزة، فإن ما يهم الدراسة عند هذا الموقع ليس تحديد وقت تبلور نظرية الاجتهاد، بل المهـم فعـلاً الوقوفُ على المِفصل التاريخـي الذي ظهر فيه المرجع الأعلى ضِمن تراتبيةِ الحوزة الشيعية، وفي هذا الخصوص، تميلُ الدراسة إلى الرأي القائل بنشأة هذا المنصب الروحـي مـع تطـور تقنيـة الاتصال اللا سـلكي، المرحلـة التـي رافقت تقريبـاً اضمِحلال المدرسة الإخبارية، وهزيمة رؤوسها في كربلاء على يد الشيخ محمد باقر بن محمد أكمل البهبهانـي الحائـري، المعروف بالوحيد البهبهاني المتوفـى العام 1791م، ويمكن القول: إن مرحلة البهبهاني التي تشكِّل المرحلة الخامسة ضِمن المراحل التي ذكرها عدنان فرحان هـي مرحلـة تبلور فكـرة المجتهد الأعلى، التي ورثتها المرحلة السادسـة وزعيمها الشـيخ مرتضـى الأنصـاري، المرجع الشـيعي الأعلى الذي لا تزال كُتُبـه في الأصول والفقه عمدةَ الدرس في مرحلة «البحث الخارج» حيث يتم تدريس البحث الخارج عليها.

1- المرجع الأعلى بوصفه الفقيه الأعلم

مـن البديهـي أن شـرط «الأعلم» يرتبـط بدرجةٍ كبيـرة بالتضلُّع بالأصول والفقه، ولكن يمكن للباحـث أن يجـد فـي العديـد مـن المدونـات الفقهيـة التأكيـد علـى شـرط العلم بالحديث والرجال في هذا السياق، ولعلَّ من الدلائل المهمة هنا هو إصدار أبرز مرجع أعلى للشيعة فـي القـرن العشـرين السـيد أبـو القاسـم الخوئـي (1317هـ-1413هـ) لمُعجمـهِ، معجمُ رجال الحديث، فبالرغـم مـن أن الرجـل يُعدُ واحـداً مـن بين أهم رؤوس المدرسـة الأصولية، حتى توافـق الكثيـرون مـن مجتهـدي الشـيعة ورجـالات الحـوزة علـى أن الخوئـي هـو أعلمُ الأحيـاء والأمـوات مـن المجتهدين، لكـنَّ أهـم تآليفـه التـي كتبهـا بيـده[3] كان معجـم رجـال الحديـث، الذي خالَفَ فيه الكثير من المباني[4] الشيعية في هذا المضمار، مما يضع بقايا المدرسة الإخبارية تحت المجهر، في ظلِّ عزوف حوزة النجف عن الفلسفة، وتشدُّدها كثيراً بمسألة الحديث والنقل، رغم أنها مدرسةٌ أصولية.

وفيمـا يخـصُ تحديـدَ المرجـع الأعلـم، الـذي يتم اختيـارُه كمرجـعٍ أعلى، فـإن تحديده -وكما هو شـائع- يخضعُ نظرياً إلى طريقين: الأول شـهادة أهل الخبرة، أي شـهادة العلماء المجتهديـن العُـدول بأعلميـةِ فقيـه مُعيـن وكونـه المؤهلَ فعـلاً لأن يكونَ المرجـعَ الأعلى، وتدخـل ضمـن هذا السـياق وصيةُ المرجعِ الأعلى السـابقِ لأحد العُلماء مـن بعدهِ، وتوجد شـواهد علـى هـذا الموضوع، كمـا حدَثَ مَثلاً مع رائد المرحلة السادسـة الشـيخ مرتضى الأنصـاري، حيـثُ أوصـى لـهُ المرجِـعُ الأعلى الشـيخ محمد حسـن النجفي صاحـبُ كتاب جواهر الكلام، وحظيَ بتأييدِ بقيةِ تلاميذه.

والطريقُ الآخر هو الشياع، والشياعُ المقصود هو بينَ أهل العِلم، يعني أن يشيعَ بين كبار رجال الدين أن الأعلمَ هو فُلان، وهذه الحالة فيما تتبَعت الدراسة تنطبقُ على المرجعِ الأعلى الحالي السيد علي السيستاني، الذي نالَ مكانَته بالشياع، حيث لم يُذكَر في تاريخه أنه تم حصولُ تداولٍ ونقاشٍ بينهُ وبين العُلماء الآخرين لتحديد ما إذا كانَ الأعلم، ولكنَّ الشياع، والترويجَ القَوي الذَّي قادهُ صِهرهُ ووكيلُه العام جواد الشهرستاني بالإضافة إلى مجموعةٍ بارزة من رجال الدين والمجتهدين بينهم الشيخ محمد باقر الأيرواني، والسيد محمد حسين فضل اللّه قَبلَ أن يتركَ هذه المجموعة، وإن أوصى بعضُ المجتهدين الكبار مُقلديهم بأن يرجعوا إلى السيستاني بعد وفاتِهم، مِثل الشيخ محمد علي الآراكي (1312هـ - 1415هـ)، والسيد محمد الروحاني (1336هـ-1418هـ) والسيد محمد رضا الكلبايكاني (1899م-1993م) وغيرهم.

2- الفقيهُ الأعلم عبرَ شبكته الاجتماعية

بالرغم مما ذُكر سابقاً، فإن الجدلَ بشأن الأعلم أيضاً له ناحيةٌ أخرى، لا تتعلقُ بقدرتِه العِلمية، بل تمتدُ إلى طبيعة المصالح الخاصة وتكتيكات ما يُطلق عليهم اسم «الحواشي» وهم حاشيةُ المرجِع، رجالُ مكتبه من بين رجال الدين، الذين يتمتعون بنفوذٍ كبير، ويؤثرون بدورِهم على اختيار المرجِع اللاحِق بعد وفاة المرجِع الحاضر، ويضافُ لهم مقدرةُ المجتهد بنفسِه وتكتيكاتِه، ومدَى شعبيتِه بين الطلاب.

على سبيل المِثال، يقول البعض: إن السيد محسن الحكيم (1889م-1970م) لم يكُن أعلمَ المجتهدين وقتها ليُصبح المرجعَ الأعلى[5]، وبغضِّ النظر عمَّا يُقال من دعم شاه إيران محمد رضا بهلوي للحكيم، ومن استعانة الحكيم بأبناء منطِقته، طرف العمارة في النجف، واستعماله أشقياء المحلة ليتمكَّن مَن التسيُّد على بقيَة المراجِع في النجف، لكن الثابت أن درسهُ كان من بين أفضل الدُروس في النجف، الأمر الذي جاء فيما ذكره المُرشد الإيراني الحالي علي خامنئي عن أيام دراسته في النجف، حيث قال بعد تعداده عدَدَ دروسِ المجتهدين التي حضرها في النجف -من بين كل هذه الدروس ارتحت كثيراً لدرس آيَة اللّه الحكيم، وذلك لأُسلُوبه السلِس وآرائه الفقهية المُتقنة-[6]، كما أنه أنتجَ بغزارة، فكتابُه مُستمسَكُ العُروة الوثقى يُعد مَن الكُتب المفصلية في الفقه الشيعي، وكلُّ هذه الأمور جَمَعت في حلقتِه عدداً هائلاً مِن الطلبة، شَكَّلوا وسائل ترويجٍ لمرجعيته فيما بعد.

على أي حال، الجدلُ بشأن الأعلم بين الفُقهاء لا يخضعُ لمجرَّد القواعد العلمية ومدى تمكُّن الفقِيه مِن أدواته، بل يتعلقُ بأمورٍ كثيرةٍ أُخرى، وإن كان هو واجِهتُها الرئيسة،

وشرطُها الذي لا محيصَ عنه.

كما أن مســألةَ النسـب العلوي، أي أن يكون المجتهد سـيداً علوياً من نسـلِ الإمام علي بن أبي طالب لها دورٌ مهم، وأحياناً تُشكِّل عاملاً للغمز بالمرجِع نفسه، على سبيل المثال، هنـاك مـن يُشـير إلـى أن الخوئـي ليس سـيداً، وأن زوجَ أُمه هـو من كان سـيداً وقَد ربّاه صغيراً.

3- من المجتمع إلى الفقيه

هناك موضوعٌ آخر، فيما يخصُّ الرابطَ الدقيق بين المرجِع والعامة، ولنكن أكثر تحديداً، بيـن المرجِع وفضائـه الاجتماعـي الأول، الـذي يُشـكِّل الصِلـة بينـه وبين بقيـةَ الأتباع، أهل النجـف وكربـلاء، وهنـا سـتتطرَّق الدراسـة إلـى مدينـة النجـف تحديداً. يمكـن القـول: إن درجةَ تأثير المجتمع بعملية اختيار المرجِع الأعلى تتحدَّد باستعانة طبقة رجال الدين بـ «العامة» واستخدامِهم لتمرير مصالِحهم، وفق قُدرة ومهارة وظروف كلِّ طامح للمرجعية، العامـة هـم وعـاء نمـو المرجِع، لو اسـتعارت الدراسـة من العُلوم التطبيقيـة أدوَاتها فيمكن تشبيه دورهم بأنه البيئة المختبرية التي يتم تخليقُ المرجِع ضِمنها، ولكنها لا تُشـكِّل إلَّا الحاضنةَ فقط، وأن دورها يتَّسُع أو يضيق برغبةِ اللاعبين حصراً، وأن موقِعها الأسـاس يتمثَّل بكونها المنصة التي يتم تعضيد أو توهينُ المرجِع خلالها.

ستضربُ الدراسة مثالاً معروفاً، الشيخ عبد الكريم الزنجاني (1304هـ-1388هـ)، يُعدُ من أهم الفُقهاء المُتفلسفين في النجف، وكانت له سمعةٌ عالمية، وبعد عودته إلى النجف وبزوغ نجمِه بطريقة هدَّدت المرجعيات الموجودة أشـاع البعضُ من الحواشـي أنَّ الشيخ شاذٌ، وكانت الدعايةٌ قويةً ضدَّه لدرجة أنْ شاعت، وصار الطلبةُ القدامى يحذِّرون الطلبةَ الوافديـن مِنـه، وحُوصِـر الرجلُ في بيتـه وعُزل عن مُحيطه، حتى مات بحسـرته، ويروي رجل الدين اللبناني السيد هاني فحص كيفَ حذَّره الطلبة القُدامى حين ورَدَ إلى النجف مـن الاحتـكاك بهـذا الشـيخ، وأنه انصاع لمـا أخبروه عن الرجل لوقت طويـل، ثم قرَّر أن يـزوره مـع زمـلاء له متمردين ليقفوا على حقيقة حالِه بأنفُسـهم، فصُدموا بجلالةِ مكانةِ الرجل وتضلُّعه الفِقهي والفلسفي[7]، وحين مات الرجل ووضعت جنازتُه في جامع الترك -حيـث إنـه مـن أصـلٍ تركي- جاء أحـد آل الحكيم واحتدَّ على من وضعـهُ هُناك قائلاً: إن هذا ملحد، ولكنَّ المتولين والمتجمعين، ردّوه لأنه كان تركياً مثلهم[8].

حادثٌ آخر كان أبطاله الشـيخ محمد الحسـين آل كاشـف الغطاء (1294هـ-1373هـ) مـن جهـة وحواشـي بقيـة المراجِع من جهـة، فقد كان الصِـراع على أشُـدِّه بينهم، وكانت الجبهـة المعاديـة لكاشـف الغطـاء تحـرِّض مجموعـةً مـن الرجـال أن يقفـوا فـي طريق

سيارة الشيخ آل كاشف الغطاء حين يمر ليصرخوا جاء أبو ناجي الكُنية التي أطلقها العراقيون على البريطانيين بعد احتلالهم العراق، وهو ما يعني اتهامَ كاشف الغطاء بالعمالةِ للبريطانيين[9]. وفي الأربعينات أو قبلها بقليل، عُرِفَ الخطيب الحسيني (السيد صالح الحلي) بلسانِه الحاد وسلقِه للحواشي، حتى قال مرةً بحضور السيد أبي الحسن الأصفهاني (1277هـ أو 1284هـ-1365هـ) كلمتهُ المعروفة في الأوساطِ الحوزوية: (إن الحوض نظيف لكن الحاشية نجسة) فحرَّم الأصفهاني حضورَ مجالسه[10]، هنا عزَفَ الناس عن استجلابه للقراءة في مجالس تعازيهم وكادت مصادر رزقه أن تنقطع تماماً، ولكن آل الجزائري وآل كاشف الغطاء ونكاية بالأصفهاني استجلبُوه وأخَذَ يقرأ في مجالِسهم في شهر محرم، رغم منعِ الأصفهاني، ثم وقعَ الصُلح بين الأصفهاني والحلي آخرَ الأمر.

وما له دلالةٌ أيضاً هو حال الطلبة الأفغانيين، الذين يُسمونَ «التَّبَّتِيَّة» حيث كانوا يشكِّلون الطبقةَ الثالثة بين طلبة النجف، الإيرانيون أولاً، يليهُم العرب، ثم التبتية المسحوقون، كانت رواتبهم لا تكفي لسدِّ رمقهم، وحين خرجوا بتظاهرةٍ في الستينات أو قبلها يطالبون بحقوقهم، حرَّضَ الحواشيُ ضدَّهم الناسَ، فتلقوا تظاهُرتِهم بالهراوات والحصى حتى أدمُوهم وألجؤوهم إلى الاحتماء بحُسينية الشسترلية في محلة العمارة، ولم يحترِمهم أحد حتى بزوغ نجم الشيخ محمد تقي المدرس صاحب كتاب «جامع المقدمات» الذي كان مقرراً على الطلاب في الحوزة في مرحلة المقدمات، فاستطاع الرجل أن يبني لهم مدرسةً في المنطقة الجديدة من النجف خارج السور، والتي لا تزال حتى الآن يسكنها الأفغانيون وتسمى باسمهم، وبنى لهم السيد عوض الأفغاني مسجداً يُصلون فيه.

وبالمجمل، فقد وضعت الطبقةُ الدينية قيوداً عسيرة أمام الفقيه الذي يُؤهَّل إلى المرجعية، ألزمُوه أن يُحيط نفسه بهالة تجعل منِه في مرتبة فوقَ مرتبةِ الإنسان الاعتيادي، وحرَّموا عليه أي نشاطٍ فكريٍ خارج الفِقه والأصول، كان متعاطو الفلسفة موضِع تهمة، ومن يقرِض الشعر في موضع ازدراء، ويقال: إن السيد محمد سعيد الحبوبي (1894م-1915م) الفقيه والشاعر المعروف قد ناقشَ ذات يوم موضوعاً فقهياً أو أصولياً وحين أعجز الطرف المقابل له قال مهاجماً الحبوبي: ما شأنك وهذا؟ إنما تحسنُ أن تقول يا غزال الكرخ واوجدي عليك، وهو شطرٌ من موشحةٍ معروفةٍ للحبوبي، ما آلمَ الرجُلَ كثيراً، وقرَّر تركَ الشِعر لساعته[11].

وكذلك كانوا يغمزون الشيخ محمد رضا المظفر (1322هـ-1383هـ) ورجالَه بذات التهمة، فأحد الذين قامت كلية الفقه ومنتدى النشر من قَبل على أكتافهم كان الشيخ عبد المهدي مطر، وقد تتبعت الدراسة الكثيرَ من الغمزِ عليه في مجلَّاتٍ كانت تصدُر

في الستينات بالنجف وتدُور ضِمن فَلَكِ آل الحكيم[12].

عنـد هـذا الحـد يمكن القـول: إن دورَ المجتمع فـي صُنع المرجع كان يتَّسـمُ بقدرٍ من التعقيد، فهو هامشـيٌّ في جوهَره، لكنهُ أساسـيٌّ في المعادلة، فالمرجع كان يتَّقي قواعدَ العامـة، يُسـايرُهم فـي رغباتهـم، يحـرصُ علـى أنْ يحيطَ نفسـه بهالةِ القداسـة أمامَهم، فـلا يقـرِضُ الشِـعر، ولا يأكلُ أمامَهـم، ولا ينخرطُ في أحداثِهم العامـة، ولا يعترِضُ على مُسلَّماتِهم الاجتماعية -مثل الموقف من التطبير وبقية ما يُطلق عليه «الشعائر الحسينية»- يرى نفسهُ أرفَعَ مِنهم، ولكنَّهم في ذات الوقت مادةُ رياستِه، ونِطاقُ سيادَتِه.

ثانياً: الإصلاح والتحديث ومأسسةُ الحوزة

1- الإصلاح وكوابح المدرسة القديمة

كانت أولى بوادِر الجدل بشأن الدراسة في الحوزة وصلاحية مناهِجها مرتبطةً بالانفتاح على الغرب ودخول البعثات الاستعمارية، والتعرُّف على منهج المدرسة الحديثة في الغرب، مع ذلك، فلا يمكن مقاربةُ منهاجيةِ التدريس في الحوزة بمجرَّد كونها نظامَ تدريسٍ قديم، لأنها من الأساس لم تحظَ بالحُرية التي نالتها المدرسة السُنّية مثلاً بما يُتيح لها أن تنموَ وتتطور دونَ عراقِيل. يُشير بعض من أرخوا لرجال النجف إلى أن السيد عيسى كمال الدين، دعا في العشرينات زملاءه إلى إيجاد كليةٍ دينية تحفظ لهم أتعابهم، وأنـه ناضـل لرُبـع قـرن مـن أجـل إيجادهـا، وطلـب مسـاعدة صالـح جبـر فـي هـذا الشـأن، بهدف أن يُلهم الحكومة في المستقبل بتكوين جامعة للدين في النجف تنظِّم على طراز الجامعات في العالم، ليكون الطالب على بصيرةٍ من أمره ومعرفةِ مستقبله[13].

أ- الشيعة والسُلطة، المعارضة والمصالحة: مـن المهـم الإشـارة إلـى أن المذهـب الشـيعي ورغـم اصطباغـه بنزعـةِ معارضةِ الدولة السُـنية، لكن هذا لا يعنـي أنه لم تكُن هنـاك تأثيـراتٌ لبعـض الحُـكام ووزرائهم على التشـيُّع، بعبارةٍ أدق، علاقـاتٌ بين الحُكام والفُقهاء، سُنةً ومُتشيعين.

على سبيل المثال العلاقة الدافئة بين العباسيين والشريف المرتضى (355هـ-436هـ) وأخيه الشـريف الرضي (359هـ-406هـ)، التي أتاحت للمرتضى أن ينشـئ مدرسةً كبرى يؤمُّهـا الطـلاب بالمئـات، كذلك علاقة الشـيخ الصـدوق (305هـ-381هــ) بالصاحب بن عبـاد الوزيـر (938م-995م)، الـذي ألَّـف مـن أجله كتابَـه عيون أخبار الرضـا، وأهداه له بمقدمـةٍ عامـرةٍ بالمديـح[14]، لا تبرزهـا بالمـداراة ومجاملـة السُـلطة إلا المقدمـة التي كتبها محمد باقر المجلسـي (1037هـ-1111هـ) مهدياً بها كتابَه زاد المعاد إلى السُـلطان حسـين الصفوي[15]، وغيرهم، ولن تجانِب الدراسـة الصوابَ لو ذهبت إلى أن بعضاً من

أهم مراحل التأسيس للفِقه الشيعي والكلام الشيعي تمت خلال فترات العلاقة الجيدة بالسُلطة تلك.

ب- المرونة واللا مؤسسية: بناءً على هذا، يمكن أن تفترض الدراسة أن الدرس الديني الشيعي أخذ طابعاً لا مؤسسياً مرناً تبعاً لتلك الظروف، ولعلَّ المرونة العالية تلك هي ما ضَمِنت له التوسُّع والبقاء، في حين انقرضت حركاتٌ كانت شديدةَ التنظيم، هرمية، مثل أخوان الصفا، والتنظيمات الإسماعيلية الأخرى، تطورت قدرات الفقهاء الشيعة الدفاعية وصاروا يتكيفون لدوامة القتل والتنقل المستمرة، كانوا يدرسون بطريقةٍ لا منهجية متنقلة، يؤلفون، يربون الطلبة، ينقلون التجربة إلى الأجيال التي تليهم.

ولعل ما يتعلق بالموضوع هو حالة القلق والخوف من الآخر التي ضَمِنت سلامة عقيدة عناصر المؤسسة الدينية، بعبارةٍ أوضح، لو كانت هناك مؤسسةٌ واضحة، وتراتُبياتٌ مكتوبة تُمكن شريحةً أوسَع من الدخول والصعود إلى جسم المؤسسة لكان من الممكن تسلُّل عناصر الدولة مثلاً واختراقَهم لجسم العقيدة الشيعية، فعمِد الفُقهاء إلى شخصَنَةِ الدرس، والمؤسسة، والاعتماد على نظام الثقاة وأولاد السابقين في الرياسة الدينية والدرس الفقهي. وإذا تجاوزنا الأبناء هؤلاء، فهناك عنصرٌ مهم هو الأصهار، الذين يتخيرُهم الفقيه أحياناً من بين أبرز تلاميذه وأنبَغِهم، أصهاراً له على بناته، ليدخلوا بعدها في جسم المنظومة الفقهية الشيعية.

ولعل لهذا التنظيم الداخلي وصعوبة دخول طلبةٍ من خارج المؤسسة إليه دوراً في منح حرية الدرس، واختيار الأستاذ والمادة في المقابل. ولعل من بين أفضل البحوث التي تناولت الدرس الحوزوي هو ما كتبهُ د. فاضل الجمالي عن حوزة النجف، يقول الجمالي بالنص: «ليس في كل ما زُرت وشاهدت من جامعات -بما في ذلك الجامعات الألمانية التي تفتخر بحريتها الفرايهات- ما يضاهي مدارس النجف في حريتها واستقلالها وفي ترسيخ المادة العلمية في ذهن الطالب وتكوين شخصيته وترك الأثَر العميق في حياته»[16].

ورغم أن القدامى كانوا يفخرون بحرية انتساب الطلبة دونَ قيدٍ أو شرط، لكنَّ البعضَ شَكا من أن ذلك قد يجلبُ للحوزة من انغلقت أبوابُ الحياة أمامهم فلجأوا إلى طلب العلم.

على أي حال، فإن السرّانية، وطبيعة النجف، والنجف السرية الموازية في السراديب[17]، فضلاً عن ارتكاز الشيعة على المؤسسة الدينية، صنعت طبقةً دينية سعت إلى أن تحصر بيدها مغاليق العلم الديني، وبالتوازي مع ترسيخها لفكرة نائب الإمام، الذي هو الفقيه الجامع للشرائط، عقّدَت طبقة رجال الدين مصطلحات الفِقه، وأحوَجت الطالب إلى سنواتٍ طويلة من الدرس والعِراك مع النصوص والكتب والمصطلحات ليتمكَّن آخر الأمر من فهم آلية عملها، وكيف يتم استنباطُ الحُكم الديني، الأمر الذي قد يكون بتقدير

الدراسة منسجماً مع نزوع النظام -أيُّ نظام- إلى حماية نفسه.

وفـي الوقـت ذاته، بقيت القاعدة التي تقـول: نظامها -أي الحوزة- في لا نظامها متبعةً وفاعلة، تتيح أن يكون هناك مركز قوةٍ راسخ، دونَ الحاجة إلى إيجاد تنظيمٍ ثابت يُسبب الانهيار لو تمت تصفيةُ رموز المؤسسة.

ولا يمكن الجزمُ بأن هذا كان يتم بوعي تام من رجال المؤسســة، ولكنَّ نزعة الحماية، ومبـدأ التُقيــة، ربمـا يكونـان قـد ولَّدا هذه الآليـة الدفاعية بشـكلٍ ميكانيكـي دونَ قصدٍ مُسبقٍ تام.

ومـا دامـت آليـة الانتقـال إلـى المراتب العليـا، تحديداً إلـى طبقة الحواشـي، ثم رتبة المرجـع، والمرجع الأعلى، تمر بسـنواتٍ طويلةٍ مُتطاولـة، يواجه فيها رجل الدين عقباتٍ كثيرة، ليست متعلقةً بالدين ونُصوصه وحَسب، بل بطبيعة الطبقة الدينية، فإن هذا ضَمنَ قـدراً مـن الاطمئنـان لتناقُـل السُـلطة الدينية بين الأجيـال بثبات، وإن لم يكُن مؤسسـياً، وضِمن حماية الطبقة من الدُخلاء، ومن «جهل العامة» وطموح الطامحين.

وما له دلالةٌ هنا ما يُذكر عن محمد باقر الصدر (1935م-1980م)، الذي كلَّف الشيخ محمد جواد مغنية بأن يعمل على تبسـيط رسـالته العملية -يعني مجموع فتاواه الفقهية- وإخراجها بلغةٍ بسيطة يفهمُها كل من يقرأُها، فبدأ الشيخ بالعمل فعلاً على هذا، ويروي أحـد المشـايخ اللبنانييـن أنه دخَلَ على الشـيخ محمد جـواد مغنية يوماً وهـو يعملُ على رسـالة الصدر، فوجدهُ غاضباً ويصرُخ محمد جواد مغنية غير قادرٍ على تبسـيط عبارةٍ من سطرٍ ونصف؟! لماذا عقَّد علماؤنا العِلم بهذه الطريقة؟[18]

وعنـد هـذه النقطـة تحديداً يمكن أن نفهمَ لماذا حورب الشـيخ محمـد رضا المظفر، لأنه عمل على تبسيط العِلم الديني، واستحداث جمعية منتدى النشر، التي تكلَّل نضالُها بإنشاء كلية الفِقه، وكان هذا يعني صعود أبناء الصعاليك إلى مدارج الفِقه دونَ عناء، دونَ عقباتِ الحواشي، وقدرتهم على كبح جِماح الطامحين، لهذا قُطع راتب المظفر، وحُوصر فـي مـوارد رزقه، ولكنه لم يستسـلم مطلقاً، حتى أسَّـس كليـة الفِقه بدعمٍ خفي من بعض المراجع، وتمويلٍ من بعض تُجار النجف.

ربمـا هـذا يجعلنـا نفهم لمـاذا مثلاً لم يلاقِ السـيد محمد كلانتـر (1335هـ-1420هـ) هذه الحرب الضروس حينما أسَّس جامعة النجف الدينية العام 1956م بدعم من التاجر الإيرانـي محمـد علـي اتفـاق، الذي رصـد لها مبلغاً ضخمـاً أمكَنَ من شـراءً قطعة أرضٍ شاسـعة في أول الأحياء السـكنية استحداثاً خارج سـور النجف، وهو حي السعد الفخم، وبعمارةٍ ضخمة[19].

ج- بوادر تحديث الدرس الديني في النجف: لن تتطرق الدراسة كثيراً إلى تجربة منتدى النشر وكلية الفقه، فقد كتبت عددٌ من الدراسات عن المنتدى، وهذه الفقرة ستركِّز على تجربةٍ تلتها، من بين التجارب المهمة التي تناولت الدرس الديني في النجف بالتحديث هي تجربةٌ وقَفَ خلفها السيد محمد باقر الصدر، أيام قدرته على التأثير على السيد محسن الحكيم، وإن تلت كلية الفِقه في تاريخ تأسيسها.

أسَّس الحكيم مدرسة العلوم الإسلامية العام 1963م، ويذكُر السيد محمد باقر الحكيم أن المدرسة كانت «تعبيراً عن نزعةٍ إصلاحية في الحوزة العلمية» وأنها هدَفَت إلى التجديد في مناهج الحوزة وتطويرها لتلائم «متطلبات الأوضاع الفكرية والبيئة الجديدة في العراق بشكلٍ خاص وفي العالم بشكلٍ عام»، وكذلك لأجل «خلق جيلٍ من العُلماء الشباب الواعين، الذين يتحملون مسؤوليةَ التبليغ للإسلام في العراق وخارجه، ويساهمون في التحرُّك السياسي الذي تقوده المرجعية»[20].

وتضَمَّنت مناهج المدرسة كتبَ محمد باقر الصدر التأسيسية، اقتصادُنا وفلسفتُنا وغيرها من كُتُبه، وكتابُ البيان في تفسير القرآن للخوئي، وبقيةَ العُلوم التقليدية.

وهناك من يرى أن الحكيم أسَّس المدرسةَ بمقترح ومبادرةِ محمد باقر الصدر التي طرحها بنفسه عليه، وآخرون يرون أن الصدر فاتح أولادَ الحكيم، مهدي ومحمد باقر بالموضوع وهما من أقنَعَ الحكيم بالفكرة[21]، على أي حال، المهم في الموضوع أن الصدر هيمَنَ على المدرسة، بكُتُبه، وطُلابه الذين اختارهم للتدريس فيها، وجَعلت الدراسة فيها على مدار خمس سنوات، وأَدخلت أسلوب إقامة ندوةٍ أسبوعية يُساهم فيها الطلاب بكلماتٍ أدبيةٍ وشِعرٍ وبحوث.

وكما هو متوقعٌ، فقد واجهت المدرسة اعتراضَ الخط القديم الرافض للإصلاح ولتطوير المناهج، خصوصاً بعد وفاة الحكيم، وخسارة المدرسة والصدر من خلفها لحمايته أمام التقليديين، فكانت حربُهم ناجحةً ضدَّها، وصولاً إلى إغلاق السُلطة العراقية للمدرسة العام 1977م.

ومن مطالعة أسماء أساتذة مدرسة العلوم الإسلامية، ومقارنتها بأسماء أساتذة كلية الفِقه لاحقاً ومؤسسي منتدى النشر يمكن أن نستنتجَ ملاحظةً تستحقُ التأمل، وهي أن دعاةَ الإصلاح كانوا بالدرجة الأولى من العرب، أو المُستعربين، يدعمُهم الترك، وأن دعاةَ التقليدية كانوا من الإيرانيين بالغالب، وبقدر ما يُحيل هذا إلى فرضيةٍ تُفيد بأن فترات هيمنةِ المراجع العرب في النجف كانت تشهدُ حراكاً واضطراباً اجتماعياً وسياسياً لطبيعةِ العراقيين المتوترة، بينما كانت فترات هيمنة المراجع الإيرانيين تشهدُ هدوءاً في الغالب، فإنه وبالوقت ذاته، يقود إلى الاستنتاج أن الحركة الإصلاحية بجوهرها كانت

تُعَبِّـرُ بطريقـةٍ مـا عن الصِراع بيـن العرب والإيرانيين في الحوزة، بين أسـلوب الإيرانيين التعقيـدي فـي العمـل، والتدريـس، والفِقه، وتدعيـم الرياسـة الدينية بهـدوء، وبين رغبة العرب العراقيين وحلفائهم الآخرين في الحوزة في أن يكسروا هذا الطوق، ويضعفوا هذه الطبقات، وأن يتدخلوا في الشأن العام اليومي. أما فيما يخص ما يردُ في بعض أدبيات الحركات الشـيعية حولَ المرجعية المؤسسـة، فلا يمكن الجزمُ بمن أَطلقَ المصطلح أول مـرةٍ ودعـا لـه، ولكن الراسـخ بتقدير هـذه الدراسـة أن المصطلح لم يكُـن ليأخذ أهميةً اسـتثنائية لـولا وقوفُ شـخصٍ بثِقل محمـد باقر الصدر خلفَ هـذا المطلب والدعوة له، الصـدر نـادى بالمرجعيـة المؤسسـية، ولكـنّ تذهبُ الدراسـة إلى أنـه كان يتصرف وِفق منهجِـه الأول، الذي تجدُه الدراسـة بالمجمل خاضعـاً لفرضية توينبي في حركة التاريخ، التحدي والاستجابة.

لقـد سـعى إلـى أن تتكيف الحوزة لمتطلبـات العصر الجديد، وأن يكـون عمل المرجع أكثـر تنظيمـاً، والـدرس أكثـر نظاميةً، لكي يُجسِّـرَ الهوةَ التي تشـكَّلت في وعي الشـباب الجامعـي، فاصلـةً بيـن تدينهم، وبين علمنة الدرس، وضراوة الأسـئلة التي دهمتهُم، وهم يقارنون بين العشوائية التي تضربُ مُجتمعُهم، والتنظيم الذي يصنعُه العِلم في الغرب[22].

وربما لهذا تحديداً ركّز الصدر ضمن دعوته الإصلاحية، وسعيه إلى انغمار الشيعة في السياسـة على الشـباب الجامعي، حيث ألقى بثِقله في الجامعات، تاركاً للحوزة التقليدية مسـاحَتها التقليديـة فـي الشـارع بيـن العامـة، واضعاً أمام الشـباب نموذجاً للاسـتجابة للتحديات الفكرية التي تواجهُهم، فلسـفياً، واقتصادياً، سـاعدهُ في ذلك تكوينُه النفسـي الهادئ، المتواضع، الخالي من عُقَدِ الزعامة، والخوف على الموقع الطبقي، وهي الأمور التي قد تكون مهيمنةً على رؤوس الحوزة الآخرين[23].

د- الشخصانية والإصلاح: ربمـا مـن الواجب الإشـارة إلـى الطابع الشـخصاني الذي ارتبط بكل عملية إصلاحية، وانكماش المشـروع الإصلاحي بذهاب مُؤسسـيه، فالمظفر الـذي تـرك كلّيتـه بيد محمـد تقـي الحكيـم (1923م-2002م)، أورَثَه معها الأحقـادَ التي حاصرته أيضاً.

كان محمـد تقـي الحكيم عضوُ مجمَعَي اللغة في دمشـق والقاهـرة، والمجامِعُ العلمية فـي بغـداد وباكسـتان وغيرها، والذي يُعدُّ مُجـدد درس الفِقه المقارن فـي العراق بكتابه «الأصـول العامـة للفقه المقارن»، وكان بدوره مختلفاً عن آل الحكيم الآخرين، وعاش في عزلةٍ عن بقية الأُسرة، وحينما حُوصرَ وتم إجبارُه على ترك كرسي عمادة كلية الفِقه إبان حُقبةِ البعث سـلَّم المكان إلى الدكتور عدنان الخرسـان، وهو رجل دينٍ أيضاً، لينزَوي في بيتـه حتى وفاته، وبتسـارُع الأحداث التي عصَفَت بالبـلاد عقِب الانتفاضة العام 1991م،

لـم يقـم لكليـة الفقـه كمـا كانت قائمـة، وحين أُعيـد افتتاحُها صـارت كليةً ضِمـن كُليات جامعة الكوفة، فيها من المشـكلات ما في أي كليةٍ أخرى، وإن كان بعضُ من سـاهم في المشـروع مِثل محمد رضا القاموسـي قد اسـتعادَ الوقفية الواقعة على شـارع الكوفة في النجف، التي تضم بنايةَ الكلية وأعادَ افتتاح الكلية بمسـمّاها القديم وموقِعها التاريخي، وتمت إعادةُ إعمارها، لكنَّها بالمجمل، لم تسـتطع أن تُحدِث ما أحدثتهُ الكلية في وقتها، ولم تُجارها بالمطلق بنوعية المناهج، والأسـاتذة، وجدِّية الطلاب، سـواء الكلية الملحقة بجامعة الكوفة، أو تلك المستقلة التي صار اسمُها كليةَ الفِقه الجامِعة.

والأمر بذاته ينطبق على مشروع الصدر الإصلاحي، الذي تشظّى وتفرّخت مِنه أحزابٌ ومؤسساتٌ ومشروعاتٌ سياسية، واستفادت مِنه ومِن رموزِه ولايةُ الفقيه الفارِغة من أي قُدرةٍ حركية أكثرَ مما استفادت منه أيُّ فرقةٍ شيعيةٍ أُخرى.

إنّ هـذه الشـخصانية، وعـدم القُـدرة علـى التحـوّل إلى تيـار فاعل، تنسـجم مع الأمر الأسـاسـي الذي انطلقت منه الدراسـة في مقاربتِها: الحمائية الشـيعية والشـعور الدائم بالخطـر والاسـتهداف، ونزوعِهـا نحوَ أن لا تُنظِّم نفسـها في جسـمٍ ديني قـد يأكلها آخر الأمر ويسبب اضمِحلالَها تحت ضغط «الأعداء».

2- إصلاحٌ أم تكيُّف؟

مـن خـلال مـا سـبق التطـرق لـه، هـل يصحُّ أن نُطلق صِفة الإصـلاح على عملياتِ تحديث المناهج وتطوير الدرس التي حصلَت في حوزة النجف؟

إن الإجابـة علـى هـذا السـؤال لن تكـون ممكنةً لـو أخذنا بمـا يقولُه رجالُ المؤسسـة الدينيـة أو مـا كتبـوه بذاتهـم عن الموضـوع، فالإصلاحُ بكل مـا يعنيه مـن تجديدٍ لآليات التفكيـر لا يرتبـط بمجـرد تطويـر المناهـج بالضـرورة، ولعلَّ مـن المبكـر أن نجيبَ على سؤالنا المركزي هنا دونَ أن نتطرَّق بالتحليل لتِلك التجارب.

أ- تكييفُ المناهج: من المهم الوقوف عند منهج اقترحهُ أحدُ رجال الدين، اسمهُ منذر الحكيـم، لتطويـر الدراسـة في الحوزة، منهجٌ تجدُ الدراسـةُ أنه امتدادٌ لما سـبَقَه، ويكاد يكون تجميعاً لمجمل التجارب التي سَبَقتهُ في النجف من كلية الفِقه وغيرها ويدور معها في ذات الفَلك[24].

علـى امتـداد الصفحـات التـي كتبهـا الحكيم فـي منهجه المقتـرح، والتقسـيم الزمني المنهجي الذي وضعه، يبدو أنه لم يكُن يرنو إلى شيءٍ سوى تحديث المناهـج وترصين أمد الدراسـة، والهدف الأسـاس هو رفع قدرات طالب العلوم الدينية وزيادة أدواته المعرفية الدينيـة الدفاعيـة، عبر اطّلاعـه على العلوم الحديثة والفلسـفة الغربية، وتكييفها، الأمر

الذي وُجد من قَبل في تجربةِ كلية الفِقه.

وهنـا تعـود الدراسـة إلـى مشـروعِ الصدر مـرةً ثانية، وتسـأل: هـل جاء الصـدر بآراءٍ عقائديةٍ جديدة؟ هل غيَّر مباني الأصول؟ هل خالفَ العقائد الشيعية وآلياتِ الاستنباط؟

والإجابة على هذه الأسئلة هي واحدة، إذ يبدو أن مشروعَ الصدر كان يهدفُ إلى مجرد وضع قواعد للآلية الشـيعية التقليدية في تفسـيرِ وفهم التاريخ، والمنهجية الشـيعية في دراسة الدين والعقائد والكلام، أكثر مما سعى إلى إيجاد بديلٍ فقهي وآلياتٍ جديدة.

ومـع أن انتقـاده المناهـج كان يحمل ضمنياً إشـارةً إلى تَبدُّلِ الأزمنـة وضرورة التكيُّف للوضـع الحاضـر كمـا فـي قولِه حولَ من يعترضُ علـى تبديل كتاب درّس عليه السـابقون الكبار كالأنصاري: «هذه النزعة الاستصحابية التي تجعلنا دائماً نعيش مع أمةٍ قد مضى وقتها، مع أمةٍ قد ماتت وانتهت بظروفِها وملابساتِها، لأننا نعيش بأساليب كانت منسجمةً مـع أمـةٍ لـم يَبـقَ منهـا أحد»[25] إلّا أن الدراسـة تجـدُ أنَّ مجمل ما كتبه كان -كما سـبقت الإشارة- دفاعياً حمائياً، يهدفُ إلى التكيف وصيانة المذهب والدين من الزلزال الفكري الذي عصَفَ بِه مع العصرِ الحديث.

مـن جانـب آخـر، لا يمكن أن نغفلَ ونحنُ نتفحصُ نزعتَـهُ الحمائية هذه أمرين مهمين: الأول هو ما أشارت إليه الدراسة مسبقاً من تدخل رجال الدين الشيعة العرب في الحياة العامة، وآل الصدر ليسوا ببعيدين عن هذا التدخل، بل لعلَّهم ذهبوا بعيداً في الولوج إلى الحياة السياسية كما لا يخفى على متتبع تاريخهم خلال الحُقبة الملكية مثلاً.

الأمر الثاني، هو نزعةٌ عروبيةٌ عراقيةَ لدى الصدر، فرغم أنه برَّر ميلَهُ إلى استقطاب العـرب العراقييـن فـي الحوزة بأنه صيانةٌ لها من تُهمة التبعية للخارج، والإرجاف بها بما يُضعف الحوزة، ولكن لا يبدو ذلك السببَ الوحيد إذا لاحظنا تركيزَ الصدر على الشباب فـي الجامعـات، ومـع حضِّه الطبقـةَ الدينية على التواصل مع القواعد الشـعبية التي هي أولَى بالاهتمام، فضلاً عن نفورِه من الحواشي، كلها مجتمعةً تبين أنه كان أكثر ميلاً نحوَ رفعِ أسهم العراقيين في الحوزة.

وبالمجَمـل فـإن سـعياً مثـل هذا السـعي يتطلب بدوره ميـلاً إلى تطويـر القديم وليس نقضه، حفظاً للخيط الواصل بين الطبقة الدينية وقديمها ورمزيتها من جهة، وبينها وبين جمهورها من جهةٍ أخرى.

على أي حال، لا تستطيع الدراسة أن تجدَ في أي نقطةٍ مفصلية مما يُطلَقُ عليه إصلاحٌ في الحوزة ما يمكن أن نعُدهُ إصلاحاً دينياً كما نعُد الإصلاح البروتستانتي إصلاحاً.

ولعلَّ لملاحظة هاني فحص حولَ ميولِ حوزة النجف غير الفلسفية بخلاف حوزة قم، بطريقةٍ جعلت النجف، بسـبب عروبتها، مدينةً حاضنةً للفِقه، بينما مالت قم إلى أصول

الفِقه بسبب علاقتِها بالفلسفة والعرفان تلقي الضوء حولَ طبيعة الإصلاح المُفترض في حوزة النجف[26].

ب- التقليديون: الأكثرُ قدرةً: نستطيع القول: إن بعضاً من أهم المراجعات النقدية للأُسُس والأصول عند الشيعة الإمامية تمت عن طريق الجناح التقليدي في الحوزة، وليس الجناح الذي طالبَ بالتجديد، الجناحُ التقليدي كان أكثر قدرةً على المُضي بفرض آراءٍ أصولية ومبانٍ حديثيةٍ جديدة خارجَ الأُطر التقليدية الراسخة.

فالخوئي في مُعجمه، مُعجم رجال الحديث اجترَح قواعدَ رجاليةً جديدة لم تكُن مألوفةً في الوسط الحوزوي، وشدَّد على نقدِ السندِ والمتن، وأكثرُ من مرةٍ استمع الباحث إلى شيوخٍ مُفرطين في التقليدية في الحوزة النجفية يعربون عن رفضهم لبعض «مباني» السيدِ الخوئي، وركونهم إلى المباني القديمة، فضلاً عن أن له رأياً جديداً في تفسيره للقرآن حول الناسخ والمنسوخ لم يكن مقبولاً لدى جمهور المفسرين الشيعة وفقهائهم.

بالإضافة لما سبق، فإن من المراجعات المهمة للفقه الشيعي هو ما صدر عن السيستاني نفسه، موقفه من مجهول المالك وكونه لا ينطبق على أملاك الدولة، وترخيصه في الخُمس، مثل سماحِه للعراقيين بإخراج أخماسهم وتوزيعها بنفسهم إلى مستحقيها، فضلاً عن تطور موقفه التقليدي من الدولة، ودعوته إلى دولة مدنية[27]، أما الخطاب الأبرز للسيستاني بشأن الدولة، والشعب، والسُلطان فكان ما ورد في خطبة الجمعة التي ألقاها وكيله الشيخ عبد المهدي الكربلائي وأكَّد عليها في خطبةٍ تالية، حيث قال بوضوح: «إن الشعب هو مصدر السُلطات ومنه تستمدُ شرعيتها، كما ينصُ عليه الدستور»[28] وهو أمرٌ لم يسبقه له فقيهٌ شيعيٌ بوزنه، وسبَّب نقمةً داخلية بين أحزاب الإسلام السياسي في العراق، سُنيها وشيعيها.

ثالثاً: الخلافات داخل المؤسسة الدينية في النجف

لعلَّ الشخصانية التي رافقت المؤسسة الدينية الشيعية في النجف طوال عمرها قد انعكست بدورها على طبيعة العلاقة بين الأُسر التي توارثت الرياسة الدينية في النجف، واتخذت الخلافات في أغلب الأحيان طابعاً شخصانياً، كانت للميول والأهواء الشخصية فيه دافعٌ كبير بتعميق الخلافات وإثارة المشكلات.

1- الخوئي وآل الصدر والسيستاني

أ- الميراثُ المُضطرب: بدايةً يمكن القول: إن اسم السيد محمد محمد صادق الصدر لم يكُن في صدارة النِزاع على أيام المرجع الخوئي، وأن صِدامه كان مع تركةِ الخوئي، مع طُلابه وبقيةِ حاشيته.

ففـي الوقـت الـذي كانـت مرجعيـة السـيد الخوئي فـي ذروة قوتهـا، وكانت الحاشـية تتوجسُ من الصعود الصاعق للسيد محمد باقر الصدر، كان محمد الصدر على هامش ذلـك الصِـراع ولـم يكُـن أبـرزَ وجوهه، وهـو الأمر الذي ناقشـه أحد تلاميـذ محمد باقر الصدر، السيد محمد الغروي، القاطن في لبنان وهو مِن مقربي الخامنئي اليوم، ويحظى بعلاقاتٍ قوية مع كل المراجع، في النجف، وقم، وحتى مع المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله، حيث ألَّف الغروي كتاباً اسمه «تلامذة الإمام الشهيد الصدر ملامحهم النفسية ومواقفهم الاجتماعية»[29]، وقد ذكر الغروي أن محمد الصدر كان من المغمورين في مكتب محمد باقر الصدر.

وقـد اعتُقـل محمـد الصدر لفترةٍ طويلة فـكان بعيداً عن الصِـدام الفعلي مع الخوئي، وحيـن تـم إطـلاقُ سـراحه مع آخـر وجبةٍ مـن معتقلي آل الحكيـم كان الخوئـي قد توفي على الأغلب، وصارَ السـيد عبد الأعلى السـبزواري مرجعاً على الرغم من رغبات حاشية الخوئـي الذيـن أرادوا أن تنتقـل المرجعية مباشـرةً إلى السيسـتاني، ولم تشـهد مرجعية السـبزواري قليلـةُ العمـر أيَّ صدام، لأن الرجل كان سـامياً نزيهـاً مُترفعاً عن الصدامات الحوزويـة، كمـا أن علاقتـه بـآل الصـدر كانـت جيدة، فخلال سـنواتٍ وضِـعَ محمد باقر الصدر تحت الإقامة الجبرية في بيته، والتي غطَّاها وكيلهُ وتلميذه محمد رضا النعماني في كتابه «سنوات المحنة وأيام الحصار»، لم يزُر أحدٌ من المراجع أو أبنائهم محمد باقر الصدر باستثناء السبزواري الذي زارهُ وتضامَن معه.

على أي حال، الصِدام الحقيقي بين الصدر ومراجع النجف بدأ مع تسـلم السيسـتاني المرجعيـة، ومـا قيلَ عن اتصال محمد الصدر بالسـلطة وقبوله الدور الذي أراد الرئيس العراقي السـابق صدام حسـين تسـويقه للمرجعية العربية، ووافق بعد أنْ رفض السـيد محمـد حسـين آل بحـر العلوم لعـبَ هذا الدور (هـذه هـي السـردية المتداولة بين الخط النجفي في الحوزة وإن وجدَت ما يناقضها بالفعل، لكنها استُخدمت للتشنيع على الصدر بدرجةٍ كبيرة) وأعاد الصدر افتتاح الحوزة، ووضع يده على مدرسة آل الحكيم في النجف الواقعةِ في منطقة خان المخضر على الطريق المتفرع من شارع الكوفة، الطريق المؤدي إلـى منطقـة أبـو صخير التي صـارت مقراً لجامعة الصدر الدينيـة حتى مقتله العاصف، واسـتعادتها الأُسـرة مباشـرةً بعد 2003م، وحين قُتِل محمد باقر الحكيم أقام آل الحكيم مجلسَ العزاء على روحه في المدرسة.

بالطبع، من المهم ملاحظة أن الصدر، مِثل عمه المرجع القتيل لم يكُن يحظى بمحبة أهـل النجـف، لأسـبابٍ عديدة، أهمها أنه ليـس نجفياً عريقاً، ربما يتعامـل النجفيون مع المراجع الإيرانيين باحترام، لكنهم لن يتسامحوا مع عربيٍ عراقي ليس نجفياً، فكيف إذا

كان مـن أهـل الكاظمية، مع كل العداء التاريخي بين المدينتين، فضلاً عن امتعاضِهم من ابن عمه وتدخله بالشأن السياسي الذي قادَ إلى مجازر لحقت بأبنائهم، وقد اصطدموا بتلاميذه في حياته، منها حين اعتُقل الصدر للمرة الأولى وخرجت تظاهرةٌ ضمَّت طلبته وأخته وإحدى بنات السـيد حسـن القبانجي -شـقيقة صدر الدين القبانجي القيادي في المجلس الأعلـى الإسـلامي- فضربهم أهل منطقـة الحي الصناعي القديـم في النجف، وقـام أحـدُ سـدَنةِ العتبـة العلوية وهو «سـيد» من أُسـرةٍ علوية بصفع آمنـة الصدر، أخت محمد باقر الصدر المعروفة بلقب بنت الهدى[30].

ب- السيستاني والصدر: الخلافُ بشأن الأستاذ: سبقت الإشارة إلى ما يقال عن موضوع نسـبِ السـيد الخوئـي، وهـو موضـوعٌ في غاية الحساسـية، خصوصاً لمن هـو في مكانة الخوئـي، وكان منافسـوه يثيـرون هـذا الموضوع أحيانـاً، وحين تحدَّث بـه محمد الصدر وألحف في تكراره في أحد مجالسه المصورة امتعضَ السيستاني جداً، واستقبلَ الصدر بعدها ببرودٍ وفتور أغضبَ الصدر كثيراً، وشمِل السيستاني لاحقاً بهجومِه العلني.

وبعد 2003م ومقتل عبد المجيد الخوئي الذي اُتهم مقتدى الصدر بالوقوف خلفه، أو بغض النظر عنه على الأقل[31]، أصبح للموضوع بعدٌ آخر، ولا يزال آل الخوئي متمسكين بالدعـوى القضائيـة ضـد مقتدى الصدر، ولكن الظروف لا تسـمح بالمضي فيها، كما أن انضمام جواد الخوئي إلى مكتب السيستاني جعله في موقعٍ لا بد له من أن يترك الصدام مع مقتدى ويتفرَّغ لأمورٍ أخرى.

أمـا مـا يتعلـق بصدامِ الصدرييـن مع محمد تقـي الخوئي، ابن الخوئـي ومدير مكتبه، الـذي كان رجـلاً قوي الشـخصية، صارماً في إدارة شـؤون مرجعية والـده، وفق منظوره، وكان فـي طليعـة مـن اصطدمـوا مع محمد باقـر الصدر، كما فعلها محمـد رضا الحكيم -ابـن السـيد محسـن الحكيم- مع الصدر مـن قَبل، وحقيقةً لم يطل الوقـت كثيراً بمحمد تقـي بعـد أبيه، فذهاب المرجعية إلى السـبزواري أضعفه، وظـل يتنقل بكثرةٍ بين النجف ولندن ليُتابع شـؤون مؤسسـة الخوئي، ثم قُتل في حادثٍ معروف صُحبةَ زوج أختهٍ من آل الخلخالي وشـيخٍ آخر وسـائقهم، وقد اُتهمت السُـلطةً العراقية بتدبير الحادث، وللاتهام ما يُعززه من الشَّواهد.

أمـا السـبزوراي فقـد صـار مرجعاً بسـبب مكانته بيـن المراجـع، واحتـرام الناس له، وتعارف الحوزويون على أعلميته، رغم الجهد الذي بذلته حاشية المرجع الراحل الخوئي واستماتة بعضهم على أن يصبح السيستاني هو المرجع مباشرة، خصوصاً أنه تم التمهيد له بإقامة صلاة الجماعة في مسجد الخضراء نيابةً عن الخوئي في حياته، وهو من صلَّى عليه صُحبة مجموعةٍ من المجتهدين المقربين منه، مِثل الشيخ مرتضى البروجردي -والد

زوجة محمد رضا السيستاني، ابن السيستاني الأكبر- والسيد علي البهشتي (1324هـ-1424هـ) -والد زوجة عبد المجيد الخوئي نجل المرجع الخوئي- وغيرهما.

لكن ما تمتع به السبزواري من مكانة أتاح له أن يصعد إلى المرجعية رغم رغبات الجميع، وحقيقة لو أردنا الخوض بآلية اختيار المراجع فلن ننتهي بسهولة، في كل مرة كانت هناك ظروف مختلفة تقود المرجع إلى المرجعية العليا، البعض يسرف في التخوين فيربطها بنظام الشاه والدوائر الاستعمارية تماماً، والبعض يسرف في نسبها إلى الغيبي والعناية الإلهية، والبعض يربطها بالوضع الاجتماعي العام وما يمتلكه المرجع من مكانة بين الناس والحوزة وفي كل الأحوال هناك إسراف وغلو شديد في أغلب المقاربات، تميل الدراسة إلى القول: إن هناك مزيجاً من الأمور كلها، مكانة الدين وصورته وغيبيته، تدخل الوفرة المالية في دعم مرجع على حساب آخر، عوامل الدعم والصدام بين الإيرانيين والعرب العراقيين، للمفارقة مثلاً، وسبقت الإشارة إلى حادثة صلاة الجماعة والسيد محسن الحكيم.

ولكن من المهم الإشارة إلى موضوع انتقال الصراع بين الصدريين من جهة، والحكيميين وحواشي الخوئي والسيستاني إلى خارج العراق خلال التسعينات وقبلها في الثمانينات أيضاً، متجلياً بالصراع بين حزب الدعوة والمجلس الأعلى، مرة كاد الدعاة أن يقتلوا عبد المجيد الخوئي في قم وقد كانوا يصرون على مناداته بالشيخ وليس بالسيد، والصدريون الدعويون بذاتهم رموا محمد باقر الحكيم بالنعال حين أراد أن يحضر مجلس عزاء الصدر بعد مقتله[32].

ج- **حول بيت الخوئي والسيستاني**: إذا افترضنا أن المرجعية تعيش عملية إعادة تعريف مستمرة لنفسها، فإن هذا الافتراض يقود إلى القول: إن كل مرحلة من مراحل الحوزة الحديثة منذ تمركز المرجعية بشكل فعلي وامتلاكها القدرة على الاتصال بالبلدان البعيدة مع نشوء نظام البرق وتطور المواصلات طبعت بطابع شخصية المرجع الأعلى، سنلاحظ فرقاً بين المدد التي شهدت وجود مرجع عربي عراقي قوي استطاع أن يؤثر على الساحة وبين المدد الأخرى التي شهدت هيمنة مرجع إيراني.

ومن المهم أن نلاحظ أمراً يتعلق بمرجعية السيستاني، فالرجل لم يطرح للمرجعية إلا بعد حدوث أمور جلل، هو لم يكن المفضل عند أولاد الخوئي وحاشيته، فقد كانوا يعدون العدة لأن يدفعوا صهر الخوئي، السيد نصر الله المستنبط، الذي كان من أقرب الناس إلى قلب عمه المرجع الأعلى، وكتب في رثائه حين توفي قصيدة حزينة، وكان من أسمح الناس وأكثرهم بشراً وعلاقته طيبة بالمجتمع النجفي، يكفي لمعرفة مكانته أنه هو من وجّه الناس إلى الذهاب مشياً على الأقدام إلى كربلاء في الزيارة الشعبانية «15 شعبان»

كما يروي العديد من الرجال الذين هبوا لتلبية ندائه، كذلك كان من بين المرشحين السيد محمد رضا الخلخالي والد صهر الخوئي الآخر، محمد أمين الخلخالي الذي قتل مع محمد تقي الخوئي، ولكن بعد مقتل المستنبط، ومقتل الخلخالي في المعتقل بعد الانتفاضة العام 1991م تغيرت المعادلة.

كان السيستاني معروفاً على مستوى الحوزة لكنه مغمور على المستوى العام، ويمكن أن نستشف أمراً آخر بشأن شخصيته، وهو أنه لم يكن منغمراً تماماً في جو الحواشي المرجعية.

كما أن سلوكه الحاضر يعزز ما ذكرته الدراسة، مثلاً زوّج إحدى بناته إلى بائع ستائر بسيط مستعرب أو عربي فعلاً يعمل في السوق الكبير في النجف، أكبر أحفاده محمد حسن بن محمد رضا تزوج ابنة السيد عبد المطلب الخرسان، مؤرخ تقليدي ومن خدمة العتبة العلوية وآل الخرسان أسرة ذات ميول قومية عربية، اختياره مراجع عرب وعراقيين ليطلق أسماءهم على المدارس التي ينشئها، على سبيل المثال: مدرسة نجم الأئمة الشيخ نجم الدين العجلي الحلي، مدرسة الشيخ محمد جواد البلاغي، مدرسة الخويبراوي التي بنيت تكريماً لاثنين من المجتهدين الشيخ عباس الخويبراوي والشيخ حسن الخويبراوي, وكلاهما عراقيان عربيان من الجنوب، شراؤه منزل الشيخ محمد رضا المظفر وبناؤه كمدرسة، وغيرها، وإن كان يمكن تفسير هذا السلوك بشأن المدارس بكونه مرتبطاً بسياسة السيستاني في تقوية حوزة النجف وربطها بالمشاعر العراقية.

ويروي ممثل السيستاني في لبنان، حامد الخفاف، أن السيستاني يوجه أي مؤسسة من مؤسساته حين تفتح في بلد ما بأن تطلق أسماء رموز وأعلام محليين على تلك المؤسسات[33].

وعوداً على ما سبق، من المهم أن نلاحظ أن أستاذ السيستاني الفعلي الذي منحه الاجتهاد لم يكن الخوئي، بل كان الشيخ حسين الحلي (1309هـ-1394هـ)، الذي ظل مغموراً وكاد أن يُدرس ذكره بعد وفاته حتى صار تلميذه السيستاني مرجعاً، فأمر بطباعة دورته الأصولية وصدرت فعلاً عن مؤسسة آل البيت لإحياء التراث بتقديم محمد بحر العلوم الذي كان والده صديقاً مقرباً للحلي، ثم قام السيستاني ببناء مدرسة دينية تقع في حي الحنانة ذي الموقع المهم في النجف وأطلق عليها اسم أستاذه الشيخ حسين الحلي. لكن، بدا أن أولاد الخوئي لم يجدوا خياراً آخر سوى هذا الرجل، الذي بدا مسالماً، ويحترم الماضين والخوئي بصورة استثنائية، وقد يكونون قد ظنوا بأنهم سيتفضلون عليه بدفعه لمقام المرجعية فيصير تحت تحكمهم كما كانت الحال مع غيره، وكما تحكموا بمكتب الخوئي في حياته دون علم المرجع، خصوصاً بوجود مجموعة قوية

شكلت هيمنة على مكتب الخوئي وعلى آلية توزيع الأموال.

ورغـم أنهـم فشـلوا فـي أن يواجهوا صعود السـبزواري، لكن الطريق صـار ممهداً بعد وفاتـه، ووفـاة عـدد مـن المجتهدين الكبـار في قم والذيـن أرجعوا بدورهـم مقلديهم إلى السيسـتاني، ناهيك عن وجود مجموعة قوية كانت رأس حربة دفع مرجعية السيسـتاني إلـى الأمـام جمعهـم جـواد الشهرسـتاني بـذكاء في قـم، ضمت: محمـد باقـر الأيرواني، ومحمـد حسـين فضـل الله قبـل اسـتقلاله، ومحمد هـادي آل راضي، وفي لبنان الشـيخ محمـد مهـدي شـمس الديـن، وكمال الحيدري الـذي كان وكيل السيسـتاني في الإمارات لوقـت مـا وغيرهـم، الأمر الذي دفع السيسـتاني إلى الصدارة دون مشـكلات، بملاحظة شـياع الاتفـاق بيـن أهل العلم على أعلميته، وبدا الأمـر وكأن ضربة حظ وافقت رغبة آل الخوئي بتصدر السيد السيستاني.

ولكـن السيسـتاني فاجـأ أولاد الخوئـي بالتّشـدّد في محاسـبتهم على أموال مؤسسـة الخوئي، وطالب بقوائم تفصيلية للإيرادات والنفقات، وكلّف الشيخ محمد مهدي شمس الدين (1936م-2001م) بالإشراف على المؤسسة ومتابعة موازنتها فلساً فلساً، واصطدم أولاد الخوئـي بشـمس الديـن الذي لـم يكن مسـتعداً لمجاملتهم على حسـاب واجبه وما استأمنه المرجع الأعلى عليه، وكتب خطاباً يبين فيه هذه المشكلات, وطلب من المرجع أن يعفيه، لهذا خالفت إدارة مؤسسـة الخوئي في لندن الوثيقة الأساسـية للمؤسسة التي تنـص علـى أن يشـرف على المؤسسـة المرجع الأعلـى في النجف، ونقلوا الإشـراف إلى مرجع آخر، له مكانة علمية لا إشكال عليها، لكنه يعاني من ضعف انتمائه العرقي الذي يعد في الطبقة السفلى من طبقات الحوزة، ولا يمكن له أن يصبح مرجعاً أعلى ذات يوم، وهو الشـيخ محمد إسـحاق الفياض، الأفغاني، وقاموا بإعادة طباعة الدورات الأصولية والفقهيـة للخوئـي بتقريـرات الفيـاض، وفعـلاً لـم يحاسـبهم الرجـل، وظلـوا يتصرفـون بالمؤسسة وفق رؤيتهم، ووصلت الحال بعد مقتل عبد المجيد الخوئي إلى أن جيء على عجل بعبد الصاحب الخوئي، ولم يكن رجل دين معمماً أصلاً، كان تاجراً، فلبس العمامة وتسلم إدارة المؤسسة.

في النهاية لم يكن السيستاني الرجل الطيّع الذي بدا عليه أيام كان أستاذاً مغموراً قليل الموارد بين العشـرات من المجتهدين الكبار في النجف، وظهرت شـخصيته القوية التي تحاسـب على الكبيرة والصغيرة ما أنفر حاشـية الخوئي عنه، وعزز دخول عبد المجيد مـع البريطانييـن وظهوره علـى التلفزيون البريطاني الذي كان يبـث إلى النجف والجنوب أول أيام دخول قوات التحالف إلى العراق يتحدث هو ود. ليث كبة عن المستقبل الزاهر الذي ينتظر البلد بعد التحرير ويروى أن هذا التصرف لم يرض السيستاني، واحتج عليه.

رابعاً: بُنية مكاتب المراجع

1- أنماطُ التَّشكُّل والارتقاء داخل المكاتب

أ- **المكتب: عالمُ المرجع الخارجي**: بداية من المهم الالتفات إلى أمر في غاية الأهمية، وهو أن مكاتب المراجع ليست مؤسسة ذات آليات واحدة وثابتة أو تتبع قواعد ثابتة ذات نسق عمودي تنتقل من مكتب إلى آخر ومن جيل إلى آخر أو أن لتراتب الأدوار والأشخاص فيها نسقاً مؤسسياً ثابتاً.

الواقع أن «البرانيات» أو المكاتب تستند إلى أسس غير مكتوبة، قبل تنظيمية لو صح التعبير، هي تستند إلى أقدم أنواع آليات الارتقاء الاجتماعي، نعني نمط القرابة والتقييم الشخصي. وقبل التطرق إلى بنية وتركيب هذه العلاقات في المكاتب من المهم الإشارة إلى معنى «البرانيات».

ب- **بُنية المكاتب، ومكتب السيستاني**: وبنية المكاتب ترتكز على مستويين: الأول هم الفاعلون الأساس، والثاني هم الوكلاء والمعتمدون، كما يتبين في الفقرات الآتية:

المستوى الأول: يضم هذا المستوى الفاعلين الأساس، وهم أقرب ثقات المرجع، أسرته وأصهاره، الذين يضع فيهم ثقته المطلقة دون تردد، ويمنحهم الوكالة العامة التي تتيح لهم استلام الأموال وصرفها دون الرجوع إليه، ويمكن أن نؤطر دورهم بالنقاط الآتية:

(1) في الغالب الأعم، يكون مدير المكتب والمهيمن عليه هو ابن المرجع، أو أحد أصهاره، ينطلق المرجع في اختياره هذا من باب حاجته إلى من يضع فيه ثقته الشخصية من دون حدود، لكي يكون أميناً على «بيت مال المسلمين»، وإذا كان اختياره لابنه مفهوماً فإن مسألة صعود الأصهار لها مدخل آخر يوضح جانباً مختلفاً من نمط العلاقات الشخصية داخل مكاتب المراجع.

(2) يختار المرجع أصهارَه بطريقين، الأول منهما تقليدي، أن يكون ابن أسرة دينية مرجعية، أو يكون من بين طلابه النابهين، مع بعض الاستثناءات.

(3) يهيمن ابن المرجع أو صهره على كل شؤون المكتب، بيده أختام والده، وصلاحيات صرف واستلام الأموال «الحقوق الشرعية».

(4) ليس شرطاً أن يكون ابن المرجع الأكبر هو الذي يؤدي دورَ المهيمن هذا، مثلاً سنجد أن واحداً من أقوى مراجع الشيعة في التاريخ الحديث وأكثرهم شهرة وهو «السيد أبو القاسم الخوئي» قد أوكل شؤون مكتبه إلى ابنه الأوسط من زوجته الثانية، أكبر أبناء زوجته الثانية وهو «محمد تقي»، وظل أبناؤه الكبار في الظل، الأمر الذي قد يفسر سلوك

ومواقف ابنه الكبير عباس الذي يشتم والده ليل نهار، أما محمد تقي، فقد كان في الواقع مرهوب الجانب قوياً لا يتهاون مع أحد في شؤون إدارة مرجعية والده.

(5) فـي الوقـت ذاتـه، كان أكبـر أصهـار الخوئـي وهـو السـيد نصـر الله المسـتنبط (1327هـ-1406هـ) لـه دور كبيـر في الشـؤون الفقهيـة، وكانت حاشـية المرجع الخوئي، والخوئي نفسـه ربما، يعدونه لخلافة الخوئي، إلا أن وفاته -يقال إنه توفي بحقنةٍ سـامة- نسفت هذا المشروع، ما أدار الدفةَ لاحقاً نحوَ «السيد السيستاني».

(6) فـي بعـض الأحيـان، تلعـب الظروف السياسـية دوراً في أن يكون هناك شـخصان مهيمنـان فـي مكتـب المرجع، لو لاحظنا حالةَ مكتب السيسـتاني مثلاً، سـنجدُ أن صهرهُ جـواد الشهرسـتاني قد لعب دوراً شـبه مسـتقل بحكـم وجوده خارج العـراق بوقتٍ مبكر، خلال الثمانينات ذهب الشهرسـتاني إلى إيران، وابتدأ نشـاطه هناك بتأسـيس «مؤسسة آل البيت لإحياء التراث» بمعزل عن مكتب عمه المرجع، وعبر هذه المؤسسـة، وهيمنته على مكاتب عمه في الخارج توسعت مرجعية السيستاني كثيراً، ومعها زاد النفوذ المالي للشهرستاني، وكذلك وجود عديله، الصهر الآخر للسيستاني وهو «مرتضى الكشميري»، وكيل السيستاني في الكويت ثم في أوروبا، ولكن بالوقت ذاته، لا يعني هذا على الإطلاق أنه لا يتعرض لمحاسبة ومتابعة من قبل المهيمن الآخر، وهو محمد رضا السيستاني.

(7) محمـد رضـا السيسـتاني يتميـز كثيـراً عـن زوج أختـه، ففـي الوقـت الـذي يعـد الشهرستاني من المرفهين المتنعمين، لكونه من أسرة لها تاريخ قديم في الرياسة الدينية، فإن محمد رضا نشـأ في أيام فقر أبيه، واسـتمر على نهج والده في التحرج الشـديد من إظهـار النعمـة والتـرف، وعـاش إلـى الآن علـى طريقة أبيه، بتحرج شـديد مـن التصرف بالأموال التي تحت يديه لشخصه، يسكن مثل أخيه الأصغر «محمد باقر» بيتاً مستأجراً، وبحكم المسـؤوليات الكبرى الواقعة عليه فقد تحول إلى شـخصية صعبة المراس، كثير التدقيق في كل صغيرة وكبيرة، ولا يترك لمن يعمل معه في المكتب مساحة حرية كبيرة مثل تلك التي يمنحها جواد الشهرستاني لمقربيه، محمد رضا يحاسب الصغير والكبير، ويحاسب صهره أيضاً على نشاط المؤسسات الكثيرة التي تخضع له.

(8) لا يختلـف الأمـر كثيـراً فـي مكاتـب المراجـع الثلاثة الآخرين، فـي مكتب محمد سـعيد الحكيم يهيمن ابنه عز الدين، وصهره عبد الحسـين القاضي، والقاضي من أسـرة رجـال ديـن عريقة وذات نفوذ، وهو يدير مؤسسـة دار الحكمة التي تعد الذراع الإعلامي الثقافي للحكيم، وكذلك الحال بالنسـبة للشـيخ إسحاق الفياض الذي يهيمن ابنه وصهره على شـؤونه، بينما يتحكم علي ابن الشـيخ بشـير النجفي بكل قرارات مكتب والده، وزج والده في مواقف سياسية كان لها أثر غير محمود على مكانة أبيه.

المستوى الثاني: يرتكز على الوكلاء والمعتمدين، ومن المهم هنا ملاحظة أن الذين حازوا وكالة السيستاني هم قليلون جداً، سواء كانت وكالة عامة أم خاصة.

كما أن بعض رجال الدين المتنفذين في المكتب ليس لديهم وكالة من الأساس، بعضهم هو صديق شخصي للمرجع ولكن لم تكن لديه وكالة، مثل الشيخ البخارائي ـ توفي قبل عدة سنوات ـ بينما يمتلك بعض رجال الدين وكالة خاصة في موضوع خاص، مثل حال أميني العتبتين في كربلاء الذين وكلهما منذ وقت مبكر على العتبتين.

على أيٍ حال، يرتكز نشاط مكتب السيستاني في العراق على «المعتمدين» و«الاعتمادية» هي درجةٌ أقل من الوكالة، يمنح فيها المرجع رجل دين يسكن في منطقة معينة صلاحية أن يقوم بين أهلها خطيباً واعظاً مفسراً لشؤون دينهم ويؤم الصلاة في مسجد المنطقة، ويقبض منهم أخماسهم ليوصلها إلى المرجع، ويوزع منها على الفقراء والمحتاجين في مناطقهم، والمعتمدون في الأرياف أقوى منهم في المدن.

وينظم شؤون المعتمدين مكتب رئيس يتبع إلى «مؤسسة المرتضى للثقافة والإرشاد»، وعن هذه المؤسسة تصدر عدة كتب سنوياً بالإضافة إلى مجلة انتظم صدورها منذ العام 2004م، وللمؤسسة موازنة كبيرة ينفق منها على شؤون المعتمدين، والمساعدات التي يوزعها المعتمدون في مناطق سكنهم، والنشاطات التثقيفية التي يقومون بها.

في مرحلة من المراحل نشطت مؤسسة «الإرشاد والتوجيه الديني» والتي تتبع لمكتب السيستاني أيضاً وهذه تأسست في العراق العام 2004م أسسها مجموعة من رجال الدين الذين عادوا إلى العراق من إيران بعد العام 2003م، وصبت عملها أيضاً تجاه المعتمدين تقدم لهم الدعم بالكتب والدورات التثقيفية وما شابه، ولكن هذه المؤسسة لم تستطع أن تزاحم عمل مؤسسة الإرشاد. وكون المعتمد لا يمتلك صلاحيات واسعة لا يعني أنه لا يستطيع أن يتصرف بالأموال التي تحت يديه دون علم المرجع، وقد أصدر السيد محمد رضا السيستاني توجيهاً بمنع ركوب أي من معتمدي السيد السيستاني سيارات فاخرة أو السكن في منازل فارهة.

ومن المهم أن تشير الدراسة عند هذا الموضع إلى أن وكلاء السيد السيستاني في العراق غير ظاهرين إلى الصورة، ولا يؤدون أدواراً مهمة كتلك التي يؤديها وكلاؤه في الخارج، بسبب هيمنة شخصية محمد رضا السيستاني على الشؤون الداخلية وتفرده مع مجموعة صغيرة بصنع القرار.

هناك أسماء غير ظاهرة إلى العلن، وهؤلاء رجال دين مجتهدون معروفون في الوسط الحوزوي، ويستمع محمد رضا إلى كلامهم فيما يخص شأن الحوزة والمرجعية ومستقبل النجف، وكونهم مجتهدين أغناهم عن أن تكون لديهم وكالة ـ لم تستطع الدراسة التأكد

تماماً من هذا الموضوع تحديداً ـ على أي حال، أبرز الأسماء في هذا المجال الشيخ محمد باقر الأيرواني ـ من أصول تركية ـ والشيخ محمد هادي آل راضي ـ عراقي عربي من أسرة نجفية علمية عريقة ـ وكذلك السيد علي السبزواري ـ نجل السيد عبد الأعلى السبزواري المرجع الأعلى السابق ـ وكلمته مسموعة في مكتب السيستاني.

هناك أيضاً مشرفون على المدارس الدينية، ولكنهم أيضاً خاضعون لرأي محمد رضا السيستاني، المشرف العام على المدارس كان الشيخ محمد هادي آل راضي إلى سنوات مضت، ثم تولى مكانه أمين عام العتبة العلوية الذي تم إعفاؤه «السيد نزار الحبل المتين».

وهناك أيضاً المؤسسات التي ترتبط بمكتبه ومؤسساته في إيران، أبرزها فرع مؤسسة آل البيت لإحياء التراث في النجف، ويشرف مدير هذا الفرع على المستشفى الخيري المتخصص بالعيون والقلب وتقدم المستشفى خدمات طبية تعجز عنها المستشفيات الحكومية، وقد افتتحه السيستاني في النجف, وتتبع المؤسسة فعلياً لجواد الشهرستاني.

وتمتد شبكة المعتمدين على طوال النطاق الجغرافي للعراق، تضعف أحياناً في بعض المناطق مثل المناطق التي تشهد هيمنة صدرية كاملة في بعض أجزاء مدينة الثورة كالفضيلية، أو في المعالف، وكذلك حي الرحمة في النجف.

ومن المهم الإشارة في هذا الموضع إلى أمرٌ مهم، ساهمَ في كبح جماح الوكلاء والمعتمدين وسبب تضييق الخناق عليهم من قبل «محمد رضا السيستاني»، وهو انخراطهم العلني في دعم بعض القوائم الانتخابية، وذهابهم إلى حد بعيد في تأييد القائمة الشهيرة (169) بطريقة فاقت القدر الذي أراده السيستاني، وانحيازهم بشكل خاص إلى المجلس الأعلى الإسلامي في كل تحركاته أيام انتخابات الجمعية الوطنية العام 2005م، فضيق محمد رضا عليهم الخناق وقيد حركتهم كثيراً، وهم بدورهم خافوا على مصالحهم.

وتذهب الدراسة إلى أن وجود المعتمدين والوكلاء داخل العراق وارتباطهم المباشر بمحمد رضا السيستاني أفقداهم أهميتهم، حتى داخل المكتب، لا يصنع المشايخ والسادة الصغار قراراً، أشخاص أمثال آل راضي، والأيرواني، والسبزواري، والأنصاري هم فقط من يؤثرون, وتأثيرهم أيضاً له حدوده وقنواته، وتجد الدراسة أن قوة السيستاني الحقيقية نابعة من طريقة بنائه شبكته، فهي شبكة تقليدية جداً، وإن قوته تقوم على ذات الطرق غير التقليدية تلك، على السطوة الروحية والتاريخ أكثر مما تعتمد على التنظيم المحكم، وربما بدأ يلتفت إلى أن هذا الأمر لن يديم زخم الحوزة كثيراً فبدأ بالتوسع ببناء المدارس لتعزيز عدد الطلبة في النجف، ناهيك عن تمويل بعض القنوات الفضائية مثل

قناة المعارف ـ الشيخ حبيب الكاظمي ـ وما تقوم به قناة كربلاء التابعة للعتبة الحسينية.

ولعل من أهم الأمور التي تلقي بظلالها على آلية بناء الشبكة المالية للمرجع السيستاني في العراق هو أنه يوجه العراقيين بأن ينفقوا أخماسهم بأنفسهم دون الحاجة إلى أن يسلموها إلى المكتب، وهو أمر يبين أن الجزء الأكبر مما ينفقه السيستاني لا يقدم من عراقيي الداخل، بل من الشيعة العراقيين وغير العراقيين في الخارج، وقد يثير الاستغراب ملاحظة أن أكثر التجار الشيعة المغتربين دعماً للسيستاني هم العلمانيون وغير المتدينين فعلاً، التجار العراقيون في لندن بالذات، فضلاً عن ذلك فإن التجار العراقيين الكبار في الداخل أيضاً يقدمون جزءاً من أموالهم للسيستاني ولكن في الغالب يوجههم إلى إنفاقها بأنفسهم أو التبرع بها إلى مؤسسة العين، ومنذ تأسيس هذه المؤسسة وجه السيستاني بأن يتم تحويل الصدقات إلى صناديق هذه المؤسسة، ومن حسناتها أن لها موازنة سنوية معروفة وحسابات مسجلة.

ج- **إدارة الموارد المالية:** أما ما يتعلق بإدارة الموارد المالية للمرجع، فلا توجد في مكاتب المراجع آليةٌ واضحة لإدارة الصرف والشأن المالي، ويرتكز المرجع على مساحة حرية واسعة في الصرف تتيحها له الصلاحيات الواسعة التي منحت له فقهياً، ولا توجد وصولات قبض أموال نظامية، ولا توجد موازنة سنوية تبين الوارد من الخارج، والأمر على أشده في حالة المرجعية في النجف، لأنها لا تستخدم حسابات مصرفية، بينما هناك نوع من التقنين ومعرفة الموارد في مكاتب المراجع في قم وبمن فيهم السيستاني، لأن لهم حسابات رسمية يتم تحويل الأموال عليها من الخارج، وإن ظلت سرية مجهولة وتخضع موارد صرفها لذات التقديرات الكيفية الشخصية، وإن أعلن عنها في بعض الأحيان، مثل الأرقام التي تضمنها كتاب صدر في التسعينات عن نشاطات مكتب ومؤسسات السيستاني في قم، تضمنت أرقاماً عما تم صرفه في عددٍ من الدول.

خلاصة

سَعت الدراسةُ إلى تتبُع الجُذور السوسيولوجية لوجودِ المرجِعية العُليا للشيعة الإمامِية، والدورِ الذي لعبتهُ خلالَ سنواتٍ طِوال، منذُ إرهاصاتِها التأسيسية المُبكرة، وأهمُ الركائز الثقافِية التي قامت عليها.

وإذ افترَضَت الدراسةُ أنَّ النزعةَ الحمائية كانت العامِل السوسيولوجي الأهمَّ الذي ضَمِن للمرجعيةِ مطاولتَها كل هذه السنوات، فإنها وبالوقت ذاته سارَت ضمنَ بُنيةٍ لا مُؤسَّسية، تعتمِدُ على العملِ في إطارٍ واسِعٍ من المُرونة، وِفقَ قواعَدَ فقهية مُجمَلة، تُتيحُ للفقِيه الشيعي إعادةَ التكيُّف وِفق الظروفِ التي يواجِهُها خلالَ عصرِه.

وهـذه الظـروفُ بالمُجمـل واجَهـت المرجعيـةَ الشـيعيةَ الحاضـرة، بتحدِّيـات داخلية وخارجيـة، أجبَـرَت المرجعيـةَ علـى إعادةِ تكييـفِ أدوارِها، ورسـمِ مسـارِها، وإذْ أهمَلت الدراسةُ تتبُّعَ الدورِ السياسي للمرجعِ الأعلى في النجف، لوفرَةِ ما كُتِب عن هذا الموضوع، فإنَّها تتبَّعت شبكَتَهُ، وآليةِ عمَلِه، ومنابعِ اتخاذِ القرار، وكيفَ سلَكَ في سبيل استدامةِ دورِ المرجعية الشيعية كمؤسَّسةٍ راعيةٍ وحاميةٍ لرعيَّتها.

والاسـتنتاجُ الرئيـس الذي خلُصَت لهُ الدراسـةُ يتحددُ بأنَّهـا حقَّقَت فرضيتَها، وألقَت الضـوءَ علـى الكيفيـة التـي أدامَـت المرجعيـةُ الدينيـةُ لـدى الشـيعة الإماميـةِ وجودَهـا عبرَهـا؛ عبـرَ ترسـيخِ النزعَـةِ الحمائيـة، والتكيُّـف والتجـدُّد، دونَ الخُـروجِ عـن الأُصول والقواعِدِ الأساسيَّة.

المراجـــع والمصـــادر

(1) طريق السـلام، الشـيعة بين المدرسـة الأصولية والمدرسـة الإخبارية (1) السـيد كمال الحيدري، يوتيوب، 15:48 دقيقة، (29 فبراير 2016م)، تاريخ الاطلاع: 05 فبراير 2010م. http://bit.ly/3aTNsmL

(2) عدنان فرحان، حركة الاجتهاد عند الشـيعة الإمامية (بغداد، بيروت: مركز دراسـات فلسـفة الدين، دار الهادي، 2004م)، ص245 وما يليها.

(3) بعض مؤلفات المجتهدين الشيعة تكون تقريرات لدروسهم، يكتبها طلابهم النابهين، ويعرضونها على المرجع قبل دفعها للطبع، وهي تختلف عن الكتب التي يعكف المجتهد على تأليفها بنفسه.

(4) المباني: هي موازين الجرح والتعديل للأحاديث ولرواتها، سنداً ودلالة.

(5) محمـد حسـن الكشـميري، جولـة في دهاليـز مظلمة، (11 ذى القعدة 1432 ه)، ص 202، تاريخ الاطـلاع: 01 يناير 2020، http://bit.ly/33jMSvN

(6) موقـع الخامنئـي باللغـة العربية، سـيرة الإمام الخامنئي، (27 يوليو 2016م)، تاريخ الاطـلاع 06 مارس 2020م، على الرابط: https://is.gd/6ax3ok

(7) هـاني فحص، المرجعية... ملاذنا الأخير، مجلة الأسـبوعية، (العدد 221، مايو 2012م)، ص33، ويذكر أن هـاني فحص لم يذكر اسـم الشيخ الزنجاني في المقال، وختمه بالقول: عزيزي القارئ، أرجو أن تكون عرفت اسم الرجل بالكامل، وأهل النجف يعرفون أن المقصود هو الزنجاني.

(8) محمـد حسـن الكشـميري، جولـة فـي دهاليـز مظلمـة، ص264، وأيضا: شـهادة أحد المعمرين في النجف ممن شـهد تشـييع الشـيخ الزنجاني، تم تجسيل الشهادة بتاريخ 18سبتمبر 2011م.

(9) محمد حسن الكشميري، جولة في دهاليز مظلمة، ص160.

(10) تطـورت مهنـة (الخطيـب الحسـيني) عبر عـدة مراحل، بالغالب، يجلس رجل دين حسـن الصوت، يذكر واقعة مقتل الحسـين، ويقرأ شـعرا رثائيـا يثيـر البـكاء، في العصر الحديث، تطـور دور الخطيب ليلقي محاضرة في الدين والعقيدة والأخلاق وما شـابه، ليربطها آخر المحاضرة بمقتل الحسين، ويقرأ شعرا رثائيا له.

(11) عبد الغفار الحبوبي (إعداد)، ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي، (بغداد: وزارة الثقافة والاعلام/ دار الرشيد للنشر، 1980م) ص37.

(12) مثـل مـا كتبـه ريـاض حمزة شـير علـي صاحب مجلة الحوزة، فقد كتب يغمز الشـيخ مطر ضمن كتاب حمل عنـوان (الأعور الدجال) طبع في النجف بدون تاريخ.

(13) علي البهادلي، الحركة الإصلاحية في الحوزة العلمية، موسـوعة النجف الأشـرف، جمع بحوثها جعفر الدجيلي، جزء9، (بيروت: دار الأضواء، 1997م) ص121.

(14) محمد بن علي بن الحسين القمي (الشيخ الصدوق)، عيون أخبار الرضا، ج1 (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1984م)، ص12.

(15) علي شريعتي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ترجمة حيدر مجيد، (بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم)، ص204.

(16) موسوعة النجف الأشرف، الجزء 9.

(17) تقـع النجـف ضمـن بيئة مناخية قاسـية، فرضت على أهلها أن يبتنوا سـراديبا عميقة تحت بيوتهم، كانـت تتصل ببعضها حتى تصل إلـى قنـاة كبيـرة تتصرف عبرها المياه الجوفية، وهذه السـراديب شـكلت الملجأ الآمن لكل هـارب من السـلطة منـذ القدم، كما أنها كانت مقرا للسكان هربا من الحر في الصيف، والبرد في الشتاء، مما أولد مدينة موازية سرية تحت الأرض، لا تستطيع أي سلطة أن تصل لها.

(18) لقاء مع الشيخ عفيف النابلسي وكيل السيد محمد باقر الصدر، جريدة الغري النجفية، (النجف: العدد، 21، مايو 2004م)، ص3.

(19) مقابلة شخصية مع أحد أساتذة الجامعة تمت في سبتمبر 2017م.

(20) علي البهادلي، الحركة الإصلاحية في الحوزة العلمية ، ص112.

(21) المرجع السابق، ص114.

(22) نوقشت الفكرة ضمن مقابلة شخصية مع أحد الدعاة الأعضاء الأوائل في حزب الدعوة ـ تمت المقابلة في 13 سبتمبر 2017م.

(23) المرجع السابق.

(24) منذر الحكيم، البرنامج المقترح لتطوير الدراسة الحوزوية من خلال محورية القرآن الكريم واعتماد الأسلوب العلمي، في موسوعة النجف الأشرف، ج9، ص199 وما يليها.

(25) عبد الجبار الرفاعي، ملاحظات على النظام التعليمي في الحوزة العلمية في النجف، نظرة تقويمية لدواعي التجديد، في: موسوعة النجف الأشرف، ج9، ص167.

(26) ينظر ما كتبه هاني فحص في: زهير الجزائري، النجف.. الذاكرة والمدينة، (بغداد: المدى للإعلام والثقافة والفنون، 2015م) ص268.

(27) حول موقف السيستاني من أملاك الدولة وأموالها ونفي صفة مجهول المالك عنه ينظر مثلا: موقع شفقنا، المرجع الأعلى السيد السيستاني ينسف نظرية مجهول المالك، (14 يناير 2017م)، تاريخ الاطلاع: 04 مارس 2010م. https://is.gd/bebWTE

(28) نص الخطبة الثانية التي ألقاها ممثل المرجع السيستاني في كربلاء بتاريخ 20 ديسمبر 2019م على موقع السيد السيستاني، تاريخ الاطلاع: 07 مارس 2020م. https://is.gd/jRvfLB

(29) محمد الغروي، تلامذة الإمام الشهيد الصدر، ملامحهم النفسية ومواقفهم الاجتماعية، (بيروت: دار الهادي، 2004م)، مادة محمد الصدر.

(30) رواية شـهود عيان من أهل النجف، أخذت عدة شـهادات من أشـخاص متفرقين خلال العام 2015م، شـهدوا الواقعة وتداولوا اسـم الشخص الذي صفع آمنة الصدر، وقد توفي ولا داعي لذكره.

(31) حول دور أنصار الصدر في مقتل عبد المجيد الخوئي ينظر: معد فياض، اغتيال الزعيم الشيعي عبد المجيد الخوئي في النجف، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ الاطلاع: 06 مارس 2020م. https://is.gd/dXA6S5

وأيضا: معد فياض، قاضي التحقيق العراقي في قضية مقتل عبد المجيد الخوئي ورفيقيه للشـرق الأوسـط: شـهادات الشهود واعترافات متهمين معتقلين وقرائن مادية تؤكد توجيه الاتهام لمقتدى الصدر، جريدة الشـرق الأوسـط، تاريخ الاطلاع: 06 مارس 2020م. *https:// is.gd/Z7BR9V*

(32) تلـك الأيـام، مـن اعتـدى على السـيد محمد باقر الحكيم في إيران؟ الجزء الرابع.. تلك الأيام مـع د.حميد عبد الله، يوتيوب، 14:21، (22 فبراير 2020م)، تاريخ الاطلاع: 04 أبريل 2020م.ht https://bit.ly/2Ax3V3I

(33) لقاء شخصي مع أكاديمي عراقي مقرب من الوسط الحوزوي، تم اللقاء بتاريخ 16 يونيو 2016م.